

من النقد الثقافي إلى بناء الوعي الحضاري
دراسة تكاملية في فكر عبد الله الغدامي ومالك بن نبي

**From Cultural Criticism to the Construction of Civilizational Awareness:
An Integrative Study of the Thought
of Abdullah Al-Ghathami and Malek Bennabi**

عالية زروقي *

جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف، الجزائر

a.zerrouki@univ-chlef.dz

تاريخ الارسال 2026-05-07 تاريخ القبول 2026-08-29 تاريخ النشر 2026-09-20

ملخص: تسعى الدراسة إلى إعادة بناء العلاقة بين النقد الثقافي والتحول الحضاري في الفكر العربي المعاصر، انطلاقاً من فرضية ترى أن الثقافة تمثل البنية العميقة المؤسسة للفعل الحضاري، وأن أزمة النهضة العربية ترتبط أساساً باختلال الأنساق الثقافية والقيمية المنتجة للوعي والسلوك.

وتنطلق الدراسة من مقارنة تكاملية تجمع بين البعد التفكيكي في مشروع عبد الله الغدامي، القائم على كشف الأنساق الثقافية المضمرة وآليات إنتاج التخلف الرمزي، والبعد التركيبي في مشروع مالك بن نبي، الذي يتجه نحو بناء الإنسان الحضاري وتفعيل شروط النهضة. وبهذا تكشف الدراسة أن العلاقة بين المشروعين ليست علاقة تعارض أو انفصال، بل علاقة تكامل وظيفي بين مستويين متلازمين: مستوى نقدي تشخيصي يفكك البنى الثقافية المعيقة، ومستوى حضاري بنائي يعيد توجيه الثقافة ضمن مشروع نخبوي شامل. وانطلاقاً من هذا التصور، يقترح البحث نموذجاً تفسيريّاً مركباً يجعل من النقد الثقافي مدخلاً تأسيسياً لإعادة بناء الوعي الحضاري، عبر الربط بين نقد النسق الثقافي وإنتاج منظومة قيمية فاعلة قادرة على استعادة فاعلية الإنسان العربي داخل التاريخ والحضارة.

ويخلص البحث إلى أن تجاوز الأزمة الحضارية في العالم العربي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الجمع بين تفكيك الأنساق الثقافية المعطّلة وبناء وعي حضاري جديد، يعيد تشكيل الإنسان بوصفه محور العملية الحضارية وغايتها الأساسية.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، التحول الحضاري، النسق الثقافي، القابلية للاستعمار، عبد الله الغدامي، مالك بن نبي

Abstract: This research examines the relationship between cultural criticism and civilizational transformation in contemporary Arab thought. It is based on the assumption that

culture forms the deep structure shaping civilizational action and that the Arab renaissance crisis is closely linked to dysfunctional cultural patterns.

The study adopts an integrative approach combining Abdullah Al-Ghadhami's deconstructive critique of implicit cultural systems with Malek Bennabi's constructive vision of civilizational renewal. It argues that the two projects are complementary rather than contradictory: one diagnoses the cultural roots of decline, while the other seeks to rebuild civilizational awareness and conditions of renaissance.

The research concludes that overcoming the Arab civilizational crisis requires both the deconstruction of obstructive cultural patterns and the construction of an effective value system centered on the human being as the core of the civilizational process.

Keywords : Cultural criticism, civilizational transformation, cultural structure, colonizability, Abdullah Al-Ghadhami, Malik Bennabi..

مقدمة:

يُعدّ سؤال العلاقة بين الثقافة والتحول الحضاري من القضايا المركزية في الفكر العربي المعاصر، لما ينطوي عليه من انتقال في طبيعة الإشكال من مستوى تشخيص الظواهر إلى مستوى تفسير شروط الفعل التاريخي. فالأزمة التي تعانيها المجتمعات العربية لا يمكن ردها إلى اختلالات مادية أو تنمية فحسب، بل تتأسس، في عمقها، على خلل في البنية الثقافية التي تنتج الوعي وتوجّه السلوك وتحدد إمكانات الفعل الحضاري. ومن ثمّ، يغدو التفكير في الثقافة بوصفها بنية مولّدة للحضارة، لا مجرد انعكاس لها، مدخلاً نظرياً لفهم تعثر مشاريع النهضة.

في هذا السياق، تتبلور داخل الفكر العربي مقاربتان بارزتان تتقاطعان في مركزية الثقافة وتختلفان في زاوية الاشتغال. تتمثل الأولى في مشروع النقد الثقافي عند عبد الله الغدامي، الذي أعاد توجيه التحليل من جمالية النص إلى أنساقه المضمرة، ساعياً إلى كشف البنى الثقافية التي تتحكم في إنتاج الخطاب وإعادة إنتاج الوعي. أما الثانية فتتمثل في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، الذي قدّم تصوّراً تركيبياً يربط بين الإنسان والفكرة والبيئة، ويجعل من الثقافة شرطاً تأسيسياً لأي نهضة، ومن "القابلية للاستعمار" مؤشراً على خلل داخلي في بنية المجتمع.

غير أن الدراسات التي تناولت هذين المشروعين غالباً ما تعاملت معهما في سياقين منفصلين: سياق نقدي ينشغل بتفكيك الخطاب، وسياق حضاري يهتم ببناء شروط النهضة، دون محاولة جادة لربطهما داخل أفق نظري موحد. ومن هنا تنبثق إشكالية هذا البحث التي يمكن صياغتها على النحو الآتي: كيف يمكن تحويل النقد الثقافي من أداة لتفكيك الأنساق المضمرة داخل الخطاب إلى مدخل معرفي لإعادة بناء الوعي الحضاري،

من خلال بناء قراءة تكاملية تجمع بين مشروع عبد الله الغدامي في تحليل النسق الثقافي، ومشروع مالك بن نبي في تفسير شروط التحول الحضاري؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من الأسئلة الفرعية، من أبرزها: ما طبيعة المفهوم الثقافي في كل من المشروعين؟ وكيف يسهم النسق الثقافي في إنتاج التخلف أو النهضة؟ وإلى أي مدى يمكن للنقد الثقافي أن يتجاوز وظيفته التأويلية ليغدو أداة تأسيس حضاري؟

وينطلق البحث من فرضية مفادها أن الثقافة تمثل الحقل العميق الذي تتحدد داخله إمكانات التحول الحضاري، وأن فهم هذا الحقل يقتضي الجمع بين مستويين متكاملين: مستوى تفكيكي يكشف آليات إنتاج المعنى داخل الخطاب، ومستوى تركيب يفسر شروط الفعل التاريخي داخل المجتمع. وعلى هذا الأساس، يعتمد البحث المنهج المقارن التحليلي، عبر تفكيك المفاهيم المركزية في المشروعين، ثم تحليل أوجه التقاطع والاختلاف بينهما، وصولاً إلى اقتراح نموذج تفسيري مركب يجعل من النقد الثقافي مدخلاً معرفياً داخل أفق التحول الحضاري.

1. النقد الثقافي في مشروع عبد الله الغدامي:

1.1. مفهوم النقد الثقافي:

يُعدّ النقد الثقافي عند عبد الله الغدامي تحولاً منهجياً داخل الدراسات النقدية العربية المعاصرة، بعدما أعلن أن النقد الأدبي " لم يعد كافياً لقراءة التحولات العميقة في الخطابات الأدبية، فكان لابدّ من استحضار البعد الثقافي " ¹ في تحليل الخطابات الأدبية بتغيير النظر إليها من كونها نصوص لغوية جمالية، إلى اعتبارها خطابات ثقافية محمّلة بأنساق مختلفة تعبّر عن رؤى اجتماعية وتاريخية وسياسية متعدّدة. وبذلك فإنّ النقد الثقافي يهدف إلى تفكيك الأنساق المضمرّة في النصوص، بسعيه إلى الغوص في ثناياها واستجلاء أنساقها المضمرّة التي تأبى الانصياع والمكاشفة أمام القراءة الجمالية، فلا يكتفي بقراءة النصوص الأدبية من منظور جمالي أو بلاغي صرف، بل يتجاوز ذلك إلى تفكيك البنى الثقافية العميقة التي تنتج المعنى وتعيد إنتاجه داخل الخطاب.

فالنقد الثقافي، في هذا التصور، هو آلية تحليلية تهدف إلى كشف الأنساق المضمرّة داخل الخطاب الأدبي وغير الأدبي، من خلال الربط بين النص وسياقه الاجتماعي والتاريخي والإيديولوجي. وبذلك يغدو النص مجالاً لتجليات السلطة والمعرفة والهيمنة، وليس مجرد بنية لغوية مغلقة. وعليه، فإنّ النقد الثقافي عند الغدامي يُحوّل الاهتمام من "جمالية النص" إلى "ثقافية النص"، أي من السؤال: كيف قيل النص؟ إلى سؤال أعمق: لماذا قيل؟ وكيف يُعيد إنتاج الوعي داخل المجتمع؟

2.1. نشأة النقد الثقافي:

يُعدّ النقد الثقافي من أبرز التحولات التي شهدتها الفكر النقدي الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ارتبط ظهوره بسياق ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. وقد تبلور هذا المفهوم بشكل أوضح مع الناقد الأمريكي فنسنت بي ليتش **Vincent B. Leitch** في كتابه **النقد الثقافي في نظرية الأدب لما بعد الحداثة** ²(1992)، إذ أسهم في تأصيل المصطلح وإدراجه ضمن الحقول النقدية المعاصرة.

غير أنّ البدايات الأولى للنقد الثقافي لا تُحتزل في هذا التأطير المتأخر، بل تعود إلى تحولات أعمق في الفكر الغربي، خاصة مع توسّع مفهوم "النص" ليشمل مختلف الظواهر الثقافية، وليس الأدب فقط. وقد أسهمت دراسات متعددة في هذا الاتجاه³، حيث انتقل النقد من التركيز على الجماليات إلى تحليل الأنساق الثقافية الكامنة وراء الخطابات.

ومن أبرز أعلام النقد الثقافي في الغرب:

- **ميشال فوكو (Michel Foucault)**: اهتم بتحليل الخطابات وعلاقتها بالسلطة، كما في كتابه **تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي**، حيث كشف عن الأبعاد الثقافية للمؤسسات الاجتماعية مثل السجون والمصحات .
- **بيير بورديو (Pierre Bourdieu)**: قدّم مفهوم "الرأسمال الثقافي"، مبرراً كيف تُوزّع المعرفة والقدرة على فهم الرموز الثقافية بشكل غير متكافئ بين الطبقات الاجتماعية .
- **أمبرتو إيكو (Umberto Eco)**: وسّع مجال النقد الثقافي ليشمل الأساطير والرموز والإشارات في الثقافة، مؤكداً أن الثقافة تُنتج أنساقاً دلالية تتجاوز النصوص الأدبية .

وقد ساهمت هذه الجهود مجتمعة في نقل النقد من تحليل النص الأدبي بوصفه بنية جمالية، إلى قراءته بوصفه نتاجاً ثقافياً يعكس علاقات السلطة والمعرفة والهوية.

في أواخر القرن العشرين دخل النقد الثقافي إلى الساحة العربية، متأثراً بالتحولات الغربية، لكنه سرعان ما اكتسب خصوصيته من خلال تفاعله مع قضايا الثقافة العربية. ومن أبرز رواده:

- **عبد الله الغدامي** : الذي يُعدّ المؤسس الفعلي للنقد الثقافي العربي، خاصة من خلال كتابه **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية** (2000)، حيث دعا إلى تجاوز النقد الأدبي التقليدي نحو كشف الأنساق المضمرّة في الخطاب الثقافي .
- **إدوارد سعيد**: أسهم من خلال كتابيه **الاستشراق والمتنقف والسلطة**، في إحداث ضجة على المستويين النقدي والثقافي العربيين.

نشأة النقد الثقافي في الغرب تعود للتحويلات الإستيمولوجية العميقة التي نقلت الاهتمام من النص إلى الثقافة في سياق ما بعد الحداثة، ثم انتقل إلى العالم العربي حيث أعيد توظيفه بما يتلاءم مع قضايا الهوية والسلطة والتراث، لاسيما مع عبد الله الغدامي الذي سعى إلى توجيهه نحو فهم البنى الثقافية العميقة للمجتمع العربي، مما يجعله أداة فاعلة في تحليل الخطاب الثقافي وتفكيك أنساقه المضمرّة.

3.1. مرتكزات النقد الثقافي عند الغدامي:

يشكل النقد الثقافي منظومة من المفاهيم والأسس النظرية والتطبيقية، تعدّ مرجعا فكريا ومنهجيا ينطلق من الباحث لفهم الخطابات وتحليل الأنساق الثقافية الكامنة، ينطلق منها الباحث لتحليل النصوص ومقاربتها وتفسيرها وتأويلها، تتمثل هذه المرتكزات فيما يلي:

• الوظيفة النسقية:

تعدّ الوظيفة النسقية من أهم المدخلات المفاهيمية في مشروع النقد الثقافي عند عبد الله الغدامي، إذ تنطلق من فكرة أن النصوص لا تُنتج داخل فراغ لغوي أو جمالي، بل داخل منظومة ثقافية متكاملة تُوجّه الفهم وتُعيد تشكيل السلوك والمعنى، إذ يؤكّد الغدامي على ضرورة ربط النقد الثقافي بالنسقية، وعرف النسق بأنّه: "مجموعة القيم والمعتقدات المتجذّرة في المجتمع والتي تتحكم في سلوك الأفراد دون وعي منهم"⁴. فالنص، في هذا التصور، ليس مجرد بنية لغوية مستقلة، بل هو انعكاس لنسق ثقافي أوسع يتحكم في طرائق التفكير والتعبير داخل المجتمع. ومن ثمّ فإن تحليل النصوص يقتضي الكشف عن هذا النسق الخفي الذي يشتغل خلف الخطاب ويمنحه دلالاته العميقة.

• المجاز الكلي:

يمثل المجاز الكلي انتقالاً نوعياً من فهم المجاز بوصفه ظاهرة بلاغية محدودة إلى اعتباره بنية ثقافية شاملة تتخلل الخطاب كله. فالمعنى لا يُنتج هنا عبر الدلالة المباشرة فقط، بل عبر شبكة من الإيحاءات والتحويلات الرمزية التي تسمح للنص بأن يتجاوز ظاهره إلى مستويات أعمق من الدلالة⁵. وبهذا يصبح المجاز الكلي أداة لكشف البنى الثقافية الكامنة، حيث يُقرأ النص بوصفه نظاماً رمزياً مفتوحاً على تأويلات متعددة تتجاوز حدود المعنى الحرفي والتفسير السطحي للأحداث.

• التورية الثقافية:

التورية الثقافية آلية دلالية قائمة على ازدواج المعنى بين ظاهر قريب ومضمّر بعيد، لكنها لا تُفهم هنا في بعدها البلاغي التقليدي فقط، بل في بعدها الثقافي الذي يكشف عن البنى المضمرّة داخل الخطاب. فالتورية تُتيح للنص أن يُخفي أكثر مما يُظهر، وأن يُمرّر دلالات مرتبطة بالسلطة والقيم الاجتماعية دون التصريح المباشر بها⁶. ومن هنا تتحول إلى أداة نقدية فعالة في تفكيك الخطاب وكشف ما يتخفى خلفه من أنساق ثقافية غير مرئية.

• الدلالة النسقية:

تتجاوز الدلالة النسقية مستويات المعنى المباشر والضمني لتصل إلى مستوى أعمق، هو مستوى النسق الثقافي الذي ينظم إنتاج المعنى داخل النصوص. فالدلالة هنا ليست نتيجة تفاعل لغوي فحسب، بل هي انعكاس

لبنية ثقافية شاملة تُعيد إنتاج نفسها عبر الخطاب⁷. وبهذا يصبح النص حاملاً لدلالات لا تتحدد داخل حدوده اللغوية، بل داخل السياق الثقافي الذي يمنحه إمكاناته التأويلية.

● الجملة الثقافية:

تُعتبر الجملة الثقافية في مشروع الغدامي وحدة تحليل تتخطى حدود الجملة النحوية أو البلاغية، إذ تُعنى بكشف البنية الثقافية العميقة التي تنتظم داخل الخطاب⁸. فهي لا تُقرأ بوصفها تركيباً لغوياً فقط، بل بوصفها حاملاً لوعي جمعي وثقافي يعكس أنماط التفكير السائدة في المجتمع. ومن خلال هذا المفهوم، يتحول التحليل من مستوى اللغة إلى مستوى الثقافة، حيث تُفهم الجملة باعتبارها أثرًا لنسق ثقافي شامل.

● المؤلف المزدوج:

يقوم مفهوم المؤلف المزدوج على فرضية وجود مستويين من الإنتاج داخل النص: مؤلف ظاهر يتمثل في الكاتب الفعلي، ومؤلف مضمّر يتمثل في الثقافة نفسها التي تتدخل في تشكيل الخطاب دون وعي مباشر من الكاتب. وبهذا يصبح النص - حسب الغدامي - نتاجاً لتفاعل بين الإبداع الفردي والنسق الثقافي الجمعي⁹، مما يزعزع فكرة المؤلف الفردي المطلق، ويؤكد أن الكتابة هي في جوهرها فعل ثقافي مركب تتحكم فيه أنساق غير مرئية.

تشكل المرتكزات التي يقوم عليها مشروع عبد الله الغدامي في النقد الثقافي نقلة نوعية في مسار التفكير النقدي العربي، إذ تنقل التحليل من مستوى الجماليات النصية إلى مستوى البنى الثقافية العميقة التي تنتج الخطاب وتوجه دلالاته. فبدل الاكتفاء بقراءة النصوص من الداخل بوصفها كيانات لغوية مغلقة، يفتح هذا المشروع على رؤية تعتبر النص جزءاً من نسق ثقافي شامل يشتمل في الخفاء ويعيد إنتاج القيم والتمثيلات داخل المجتمع.

وتتضح خصوصية هذا التصور في توسيعه لمجال التحليل النقدي، حيث لم يعد مقتصرًا على النص الأدبي، بل امتد ليشمل مختلف الخطابات الثقافية بوصفها أنظمة دلالية مشبعة بالرموز والإيحاءات. كما أسهم في إعادة تعريف مفاهيم مركزية مثل المجاز والتورية والدلالة، بحيث لم تعد أدوات بلاغية فحسب، بل آليات لكشف ما هو مضمّر في البنية الثقافية.

ومن ثمّ، فإن هذه المرتكزات مجتمعة تؤسس لوعي نقدي جديد يرى في الخطاب انعكاساً لبنية ثقافية غير مرئية، ويجعل من النقد الثقافي أداة لفهم آليات إنتاج المعنى والسلطة داخل المجتمع، بدل الاكتفاء بوصف النص أو الحكم على جماليته.

يمثل مشروع عبد الله الغدامي نقلة منهجية داخل النقد العربي الحديث، حيث انتقل من قراءة النص بوصفه بنية جمالية مغلقة إلى اعتباره بنية ثقافية مفتوحة على أنساق مضمرة تتحكم في إنتاج المعنى. وقد أبرزت مفاهيم

النسق الثقافي، والدلالة النسقية، والمجاز الكلي، والتورية الثقافية، أن الخطاب لا يفهم من ظاهره اللغوي، بل من بنياته العميقة التي تعيد إنتاج السلطة والقيم والتمثيلات الاجتماعية.

فالنقد الثقافي عند الغدامي لا يكتفي بتفكيك النص، بل يضع اليد على الآليات الخفية التي تشكل الوعي الجمعي داخل المجتمع، بما يجعل النص الأدبي أو الثقافي مرآة لتمفصلات غير مرئية بين اللغة والسلطة والمعرفة. غير أن هذا المشروع، رغم قوته التحليلية، يظل في حاجة إلى أفق تفسيري أوسع يربطه بمسارات التاريخ والتحول الحضاري، وهو ما يمهد للانتقال إلى فكر مالك بن نبي.

2. التحول الحضاري في فكر مالك بن نبي:

1.2. مفهوم التحول الحضاري:

يمثل مفهوم التحول الحضاري في فكر مالك بن نبي أحد المفاتيح المركزية لفهم مشروعه الفكري، إذ لا يُنظر إليه بوصفه انتقالاً تقنياً أو اقتصادياً في بنية المجتمع، بل باعتباره إعادة تشكيل شاملة للإنسان من الداخل، عبر إعادة بناء منظومة الثقافة التي تشكل وعيه وسلوكه واتجاهاته التاريخية. فالحضارة عند بن نبي ليست نتاجاً مادياً خالصاً، وإنما هي حصيلة تفاعل مركب بين الإنسان والبيئة والزمان والأفكار، حيث تتحدد فعالية هذا التفاعل بمدى ما يسميه بـ "قابلية الحضارة" الكامنة في البنية الثقافية للمجتمع.

يحتل مفهوم الثقافة موقعاً تأسيسياً في فكر مالك بن نبي؛ إذ تمثل "الإطار الذي تتكوّن فيه جميع خصائص المجتمع المتحضّر، وتشكّل داخله أدقّ الجزئيات التي تُسهم في بناء كيانه وتحديد تبا للغة العليا التي رسمها المجتمع لنفسه... وتتدخل الثقافة في شؤون الفرد وبناء المجتمع، وتُعالج مشكلة القيادة فيه كما تُعالج مشكلة الجماهير"¹⁰، لا يعرف بن نبي الثقافة بوصفها تراكمًا معرفيًا أو ممارسات اجتماعية سطحية، بل باعتبارها نسقًا مركبًا من القيم والتصورات والمعايير الجمالية والأخلاقية التي تحدّد رؤية الإنسان للعالم وتوجّه فعله داخله. وبذلك تتحول الثقافة إلى محيط داخلي يتشكل فيه الإنسان نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا، لتغدو الشرط المسبق لأي فعل حضاري، لا مجرد نتاج له.

ومن منظور بن نبي، يمكن تشبيه الثقافة بالبنية الحيوية للجسد، فهي تعمل داخل المجتمع كما يعمل الدم داخل الكائن الحي، إذ تضمن التوازن والاستمرارية والتغذية الرمزية للقيم والأفكار. ومن دون هذا النسق الثقافي الحي، يفقد المجتمع قدرته على إنتاج الحضارة، حتى وإن امتلك موارد مادية أو إمكانات تقنية متقدمة.

وينتقل بن نبي في تحليله للتحول الحضاري إلى تحديد جملة من المبادئ المؤسسة التي تشكل البنية العميقة لأي نهضة، والتي يمكن قراءتها بوصفها آليات تحويل الثقافة من مستوى القيم إلى مستوى الفعل التاريخي. ويأتي في مقدمتها:

• المبدأ الأخلاقي:

يرى مالك بن نبي أن الأخلاق ليست سلوكاً فردياً معزولاً، بل هي البنية الضابطة للتماسك الاجتماعي¹¹، إذ تمنح المجتمع وحدته الداخلية وتحدد إمكان قيام مشروع حضاري مشترك. ومن ثم فإن إعادة بناء الحضارة تمر بالضرورة عبر إعادة تشكيل الإنسان أخلاقياً قبل أي إصلاح مادي، على أن هذا المبدأ يستلزم عنصر الدين لما له من دور مهم في بناء الحضارة، إذ يقول: "... وهكذا يظهر لنا من وجهة نظر علم النفس، أنّ العنصر الديني يتدخل في تكوين الطاقة النفسية الأساسية لدى الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف أنا الفرد، ثم توجيه هذه الطاقة تبعاً لمقتضيات النشاط الخاص بهذه الناحية داخل المجتمع تبعاً للنشاط المشترك الذي يؤدّيه المجتمع في التاريخ"¹² فهو يبيّن أن العنصر الديني يؤدي وظيفة بنوية في تشكيل الفاعلية الحضارية، إذ لا يقتصر على كونه اعتقاداً روحياً، بل يتدخل في إنتاج الطاقة النفسية وتنظيمها وتوجيهها داخل الفعل الاجتماعي، بما يسمح بتحويل الجهد الفردي إلى طاقة جماعية منسجمة تسهم في صناعة التاريخ.

• المبدأ الجمالي:

يرى مالك بن نبي أن " للجمال أهمية اجتماعية هامة، إذا ما اعتبرناه المنبع الذي تنبع منه الأفكار، وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع"¹³، يرتبط الجمال ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق، ويعدّ المصدر الرئيسي للأفكار، يمثل هذا المبدأ عند بن نبي بُعداً بنوياً في تشكيل الوعي الحضاري، إذ يعكس الذوق الجمالي درجة التنظيم الداخلي للمجتمع. يشير بن نبي إلى أنّ هناك "صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة. إذ أنّها تحدد طابع الثقافة ككل، واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع، وعلى سلوك الأفراد فيه"¹⁴. ويصوغ في هذا الإطار معادلته الشهيرة " مبدأ أخلاقي + ذوق جمال = اتجاه حضارة"¹⁵ فالجمال، في هذا السياق، ليس قيمة تزيينية، بل مؤشر على انتظام العلاقة بين الإنسان وبيئته، وعلى قدرة المجتمع على إنتاج السلوك المنظم والإبداعي¹⁶، في حين يؤدي تدهور الحس الجمالي إلى انحدار عام في الوعي الحضاري، فالمبدأ الجمالي هو العامل الجوهري في بناء الحضارة.

• المبدأ العلمي:

يقصد به مالك بن نبي كيفية ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، بوصفه آلية لتنظيم الفكر وإخراجه من الدوائر الحدية إلى فضاء الفاعلية العقلانية، إذ يقول إنه حينما يرى "في حركة التاريخ حركة الإنسان وركوده، فإنّ ذلك يضعني أمام مشكلة تصنّف تحت عنوان الفاعلية؛ ففاعلية الإنسان في التاريخ"¹⁷. والتي تحتاج إلى العلم الذي ينبغي ألاّ يفصل عن البعد القيمي، بل يتكامل معه في إطار رؤية تجعل من المعرفة قوة تحويلية لا مجرد تراكم معلوماتي. فالعلم، في جوهره، هو أداة لإنتاج الفاعلية الحضارية حين يُدمج داخل مشروع ثقافي منظم.

• المبدأ الصناعي أو العملي:

يعدّ هذا المبدأ شرطاً لتحويل المعرفة إلى إنتاج فعلي، إذ يؤكد بن نبي أن الحضارة لا تقوم على الفكر المجرد، بل على القدرة على تحويله إلى ممارسة وتقنية وإبداع. ومن هنا تتحدد أهمية الإنسان الفعّال القادر على إنتاج القيمة بدل استهلاكها، في مقابل الإنسان السلبي الذي يظل أسير التلقي والتقليد.

وفي ضوء هذه المبادئ، تتضح طبيعة التحول الحضاري عند بن نبي بوصفه عملية داخلية شاملة، لا تنفصل فيها البنية الثقافية عن البنية الاجتماعية أو الاقتصادية، بل تتكامل جميعها داخل نسق واحد. فالأخلاق تمنح المجتمع تماسكه، والجمال ينظم ذوقه، والعلم يضبط تفكيره، والعمل يحول معارفه إلى فعل منتج، وبذلك يتشكل "الإنسان الحضاري" باعتباره محور العملية التاريخية

2.2. مشكلة الثقافة في مشروع مالك بن نبي:

يعتبر مالك بن نبي أن الثقافة ليست عنصراً ثانوياً في حياة المجتمعات، بل هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة والتاريخ معاً. فلا يمكن تصور تاريخ دون ثقافة، كما لا يمكن وجود ثقافة خارج سياقها التاريخي، يرى بن نبي أن " الثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات (الإنسان) ومعطيات (المجتمع)، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدّثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات.¹⁸ يمثل هذا التعريف عند مالك بن نبي تصوراً مركزياً للثقافة بوصفها نسقاً شاملاً يوجّه السلوك الإنساني ويشكّل الشخصية الفردية والجماعية داخل الوسط الاجتماعي، حيث لا تُفهم الثقافة باعتبارها معرفة تراكمية أو معلومات مكتسبة فحسب، بل باعتبارها محيطاً قيمياً وخلقياً يتكوّن فيه الإنسان منذ ولادته، ويتحدد من خلاله نمط تفكيره وسلوكه. ومن ثم فإن الثقافة، في هذا التصور، تتحول إلى بنية حضارية عميقة تجمع بين معطيات الفرد ومعطيات المجتمع في إطار تركيبي واحد، يجعل منها شرطاً أساسياً لقيام الحضارة أو انحسارها.

يربط مالك بن نبي الثقافة بالتاريخ ويعتبر أن " الشعب الذي فقد ثقافته فقد حتماً تاريخه، والثقافة ... هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه¹⁹، وهذا ما يوضّح طبيعة الثقافة عند بن نبي بوصفها إطاراً شاملاً وحاضناً للحضارة، لا مجرد عنصر من

عناصرها؛ فهي محيط يحيط بالإنسان ويوجه حركته، ووسط تتشكل داخله خصائص المجتمع بكل جزئياته. وهذا يعني أن الثقافة ليست معطى ثابتاً، بل نظاماً ديناميكياً يحدد ملامح المجتمع وفق الغاية العليا التي يتبنّاها، أي أنّها ترتبط بالتصور القيمي والاتجاه الحضاري الذي يوجه الجماعة. ومن هنا تتضح الوظيفة العميقة للثقافة في صياغة السلوك الجماعي، حيث تغدو محدداً داخلياً ينسق بين مختلف عناصر المجتمع ويمنحها وحدة واتساقاً.

3.2. القابلية للاستعمار:

يربط بن نبي بين مشكلة الثقافة ومشكلة التخلف الحضاري، معتبراً أن ما يسميه بقابلية الاستعمار ليس نتيجة عامل خارجي فقط، بل هو تعبير عن أزمة داخلية في البنية الثقافية تجعل المجتمع قابلاً للاختراق والسيطرة. وهي من أهم المفاهيم التي قدّمها مالك بن نبي في تحليله لأزمة العالم الإسلامي، حيث يرى أن الاستعمار لا يُفهم بوصفه قوة خارجية مفروضة فقط، بل هو نتيجة لخلل داخلي في بنية المجتمع يجعله مستعداً لقبول الهيمنة. فالمجتمعات التي تعاني من الضعف الحضاري لا تُستعمر بالقوة وحدها، بل لأنها تمتلك قابلية داخلية تجعلها أرضاً مهيأة للسيطرة. وتتجلى هذه القابلية في مظاهر متعددة، أبرزها:

• الفراغ الحضاري:

هو غياب المشروع الحضاري الفاعل داخل المجتمع. فعندما تعجز الأمة عن إنتاج أفكارها وتطوير مؤسساتها، تتعرض لحالة من الركود الثقافي والتعطّل الحضاري، مما يؤدي إلى ضعف البنية التعليمية والثقافية. ويترتب عن ذلك انهيار القيم التي تُشكّل أساس النهضة، مثل العمل والإبداع والانضباط، وهو ما يعمّق حالة التبعية ويجعل المجتمع أكثر عرضة للهيمنة الخارجية.

• ضعف الإنتاج أو الركود الاقتصادي:

ترتبط القابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي بالضعف الاقتصادي، حيث يؤدي ضعف الإنتاج إلى عجز المجتمع عن تحقيق الاكتفاء الذاتي، فيصبح تابعاً للآخرين. وينتج عن ذلك غياب روح المبادرة، وضعف الاستثمار في مجالات الزراعة والصناعة، وانتشار الكسل والاعتماد على الغير. لذلك يؤكد أن التحرر الحقيقي يبدأ من التحرر الاقتصادي، لأن الفقر يجعل المجتمع أكثر قابلية للاستعمار.

• الاستلاب الثقافي:

يُعدّ الاستلاب الثقافي أحد أبرز مظاهر القابلية للاستعمار، حيث يتبنى الفرد أو المجتمع أنماطاً ثقافية مستوردة دون وعي نقدي. وهذا يؤدي إلى فقدان الهوية الثقافية والشعور بالدونية أمام الثقافة الأجنبية، مما يعمّق

حالة الاغتراب داخل المجتمع. ويؤكد ابن نبي أن هذا النوع من الاستلاب يُعدّ أخطر من الاستعمار العسكري، لأنه يستمر حتى بعد زوال الاحتلال.

4.2. نقد التبعية الفكرية:

يرى مالك بن نبي أن التبعية الفكرية تمثل أحد أبرز مظاهر قابلية الاستعمار، بل تعد سبباً عميقاً من أسباب التخلف في العالم الإسلامي. فالمجتمعات التي تفقد استقلالها الفكري تصبح عاجزة عن الإبداع والإنتاج الحضاري، وتتحول إلى كيانات تابعة، تظل خاضعة لتأثير المستعمر حتى بعد رحيله.

ولا يقتصر الاستعمار، في نظره، على السيطرة العسكرية أو الاقتصادية، بل يمتد ليشمل الهيمنة الفكرية والثقافية، حيث تظل الشعوب المستعمرة أسيرة لأنماط التفكير التي فرضها المستعمر، فتتبنى قيمه وتصوراته، وتعامل مع ثقافته بوصفها النموذج الأرقى. وفي هذا السياق يؤكد بن نبي أن "الاستعمار قد يرحل بجيوشه، لكنه يترك وراءه آثاراً فكرية ونفسية تعيق قدرة الأمة على النهوض"²⁰، وتتجلى خطورة هذه التبعية في فقدان الثقة بالذات الحضارية، إذ تبدأ الشعوب في الاعتقاد بأن التقدم لا يتحقق إلا من خلال تقليد الآخر في كل شيء، مما يرسخ حالة من الاغتراب الثقافي والانفصال عن الهوية الأصيلة. وهنا تتحول القابلية للاستعمار من مجرد حالة ظرفية إلى بنية ذهنية ونفسية متجذرة في وعي المجتمع.

اقترح مالك بن نبي مجموعة من الحلول للخروج من أزمة التبعية الفكرية²¹، من أبرزها:

- إحياء التراث بروح إبداعية: وذلك عبر فهم التراث الإسلامي وتفعيله بطريقة متجددة، بعيداً عن الجمود أو التقليد الأعمى، سواء للماضي أو للغرب .
- إصلاح التعليم وبناء العقل النقدي: حيث دعا إلى أن يكون التعليم وسيلة لتكوين أفراد قادرين على التفكير المستقل، لا مجرد متلقين للمعرفة .
- بناء حضارة مستقلة: تقوم على القيم الذاتية للأمة، مع الانفتاح الواعي على الحضارات الأخرى دون الذوبان فيها .

5.2. التنمية والثقافة:

يؤكد مالك بن نبي أن الثقافة تمثل المحرك الأساسي للتنمية، وأن أي مشروع تنموي لا يستند إلى ثقافة أصيلة هو مشروع مشوّه يفتقر إلى الفاعلية والاستمرار. بل يذهب إلى أن التنمية الثقافية تشكل الحل الجذري لمشكلة "قابلية الاستعمار"، لأن المجتمعات التي تعاني من ضعف داخلي تصبح أكثر عرضة للهيمنة والاستغلال. ومن ثم، فإن التنمية الحقيقية تخلق وعياً جماعياً يمكن المجتمع من مقاومة التبعية، ويؤسس لتقدم متوازن.

ولا تعني التنمية الثقافية، في منظور بن نبي، مجرد زيادة في المعارف، بل هي تحول نوعي في القيم والسلوكيات التي تضبط حركة المجتمع. فهي انتقال من منطق "الكم" إلى منطق "الكيف"، حيث يصبح الهدف الارتقاء بالإنسان لا تكديس الأشياء²². ومن هنا، فهي عملية تحرر للإنسان من العوائق الفكرية والسلوكية التي تعيق تقدمه.

ويصل بذلك إلى صياغة معادلته الشهيرة للحضارة²³: الإنسان + التراب + الوقت، حيث يمثل الإنسان محور التنمية وأساسها، إذ لا يمكن تحقيق أي تقدم في مجتمع يعاني من ضعف الوعي أو انتشار الكسل والالتكالية. لذلك يشدد بن نبي على ضرورة إصلاح التعليم وبناء عقل نقدي مبدع، قادر على الابتكار بدل التقليد، لأن التقليد يعوق النهضة ولا يصنع حضارة.

أما الأرض (التراب)²⁴ فلا تكتسب قيمتها الحقيقية إلا بوجود إنسان قادر على استثمارها وتوجيه طاقاتها. فالموارد الطبيعية في ذاتها لا تصنع الحضارة، وإنما كيفية توظيفها هي التي تحدد مكانة الأمة. ولذلك، فإن التخلف ليس في قلة الموارد، بل في ضعف استثمارها.

كما يعدّ الوقت²⁵ موردًا حاسمًا في عملية التنمية، وليس مجرد إطار زمني. فحسن استثماره يؤدي إلى التقدم، بينما إهداره يعني التخلف. ويؤكد بن نبي أن الجهد البسيط المتراكم (كاستثمار نصف ساعة يوميًا) يمكن أن يتحول إلى قوة حضارية هائلة إذا تم توجيهه بوعي.

غير أن هذه العناصر لا تكتسب فعاليتها إلا داخل إطار ثقافي منظم يمنحها المعنى والاتجاه. فالحضارة لا تنشأ من توافر الموارد فقط، بل من وجود الإنسان الفاعل الذي يوظفها ضمن رؤية ثقافية متماسكة.

إن مشروع مالك بن نبي يعيد تعريف الثقافة بوصفها بنية حضارية شاملة، ومحركًا داخليًا للتاريخ، وأداة تفسيرية لكل من التخلف والنهضة في آن واحد. فالمشكلة ليست في ندرة الموارد، بل في تعطلّ الفاعلية الثقافية التي تحول الإنسان من كائن مستهلك إلى قوة منتجة للتاريخ.

6.2. النّقد الثقافي للبناء الحضاري في فكر مالك بن نبي:

ينطلق النقد الثقافي عند مالك بن نبي من تصور مركّب للحضارة، يرفض اختزالها في بعدها المادي، ويرى أنها نتاج بنية ثقافية عميقة تمنح العناصر المادية معناها وفعاليتها. وعلى هذا الأساس، يعيد تفسير التخلف بوصفه خللاً داخليًا في منظومة الأفكار والوعي، لا نتيجة مباشرة لعوامل خارجية.

ويبرز مفهوم القابلية للاستعمار باعتباره أداة تحليلية مركزية، تكشف عن استعداد داخلي يجعل المجتمع عرضة للهيمنة. فالاستعمار، في نظره، ليس سبباً أصلياً للتخلف، بل نتيجة لحالة من الضعف الحضاري المرتبط بضمور الفاعلية الفكرية وتآكل الحيوية الثقافية.

ويتعمق هذا التشخيص من خلال مفهوم أزمة الأفكار، حيث يميز بن نبي بين ثلاثة أنماط: أفكار فاعلة تولّد الحركة الحضارية، وأفكار ميتة فقدت تأثيرها، وأفكار مستوردة تعيق التفاعل الخلاق مع الواقع. ومن ثم، فإن جوهر الأزمة الحضارية يكمن في عجز المجتمع عن إنتاج أفكار حيّة قادرة على توجيه الفعل التاريخي.

ويحتل الإنسان الفعّال موقعاً محورياً في مشروعه، باعتباره العنصر الحاسم في أي تحول حضاري. فالحضارة لا تتحقق إلا حين يتحول الإنسان من مجرد مستهلك إلى فاعل منتج يمتلك الوعي والإرادة والقدرة على المبادرة. وبالتالي، فإن الجمود الحضاري يرتبط أساساً بغياب هذا النموذج الإنساني.

ويمتد النقد ليشمل النظام التعليمي، الذي يُحمّله بن نبي مسؤولية إعادة إنتاج التخلف، نظراً لاعتماده على التلقين وإهماله لبناء التفكير النقدي. ومن ثم، يصبح إصلاح التعليم شرطاً بنوياً لإعادة تشكيل الإنسان القادر على الإسهام في البناء الحضاري.

في ضوء ذلك، تتكامل رؤية بن نبي ضمن نسق فكري موحد، يجعل من الحضارة نتيجة لتفاعل الإنسان مع الأفكار في إطار بيئته، داخل منظومة ثقافية تضبط هذا التفاعل وتوجهه. وعليه، فإن تجاوز التخلف لا يتم عبر استيراد النماذج، بل عبر إعادة بناء الإنسان وتجديد الفكر وتفعيل الوعي الثقافي.

3. آليات تفعيل النقد الثقافي في مشروع التحول الحضاري العربي (نحو قراءة تكاملية بين مشروع عبد الله الغدامي ومالك بن نبي):

يمثل الانتقال من النقد الثقافي إلى التحول الحضاري في الفكر العربي المعاصر لحظة إبستمولوجية فارقة، إذ يكشف عن تحوّل عميق في طبيعة الأسئلة التي يطرحها الفكر العربي، من سؤال القراءة والتأويل إلى سؤال الفعل والتغيير. وفي هذا السياق، تبرز المقارنة بين مشروع عبد الله الغدامي ومشروع مالك بن نبي بوصفها مدخلاً نظرياً لإعادة تركيب العلاقة بين الثقافة والحضارة، لا على أساس التوازي أو الاختلاف، بل على أساس التكامل الوظيفي بين مستويين من التحليل: مستوى تفكيك البنية الثقافية، ومستوى إعادة بنائها ضمن أفق حضاري شامل.

1.3. مركزية الثقافة بين التحليل النسقي والتفسير الحضاري:

ينطلق كل من الغدامي وبن نبي من مسلمة مركزية مفادها أن الثقافة ليست عنصراً هامشياً في تشكيل الواقع، بل هي البنية العميقة التي تنتج الوعي وتوجه الفعل داخل المجتمع. غير أن هذا الاشتراك في المنطلق لا يلغي اختلاف الأفق النظري لكل منهما؛ فالغدامي يتعامل مع الثقافة بوصفها نسقاً مضمراً يتجلى داخل الخطاب، بينما ينظر إليها بن نبي بوصفها نظاماً حضارياً شاملاً يحدد مصير المجتمع في التاريخ.

وبذلك، يتحرك الغدامي داخل أفق نقدي تحليلي يسعى إلى كشف ما تخفيه النصوص من أنساق، في حين يتحرك بن نبي داخل أفق تركيبي تفسيري يسعى إلى فهم شروط النهوض والانحيار الحضاري. ومن هنا، فإن العلاقة بين المشروعين لا تقوم على التعارض، بل على اختلاف زاوية النظر: فالأول يشتغل على مستوى تشخيص البنية الثقافية، والثاني على مستوى تفسير مآلاتها الحضارية.

2.3. من النسق الثقافي إلى القابلية للاستعمار:

يعد مفهوم النسق الثقافي عند الغدامي من أهم الأدوات التي تتيح فهم آليات اشتغال الثقافة داخل الخطاب، إذ يكشف عن بنى خفية تعيد إنتاج القيم والتمثلات دون وعي مباشر. غير أن هذا المفهوم يكتسب عمقه الحضاري حين يُقرأ في ضوء مفهوم “القابلية للاستعمار” عند بن نبي، الذي يحول هذه البنى من مستوى الخطاب إلى مستوى الظاهرة التاريخية.

فما يكشفه الغدامي بوصفه نسقاً مضمراً يعمل داخل اللغة، يظهر عند بن نبي في صورة بنية نفسية واجتماعية تجعل المجتمع قابلاً للهيمنة. وبذلك، يمكن القول إن النسق الثقافي يمثل الآلية الخفية، في حين تمثل القابلية للاستعمار نتيجتها التاريخية. ومن هذا المنظور، يغدو النقد الثقافي أداة لكشف شروط التخلف قبل تجسدها، بينما يقدم التحليل الحضاري إطاراً لفهم كيف تتحول هذه الشروط إلى واقع.

3.3. تحليل الخطاب وبناء الوعي الجمعي: من الكشف النسقي إلى الفاعلية الحضارية:

إذا كان الغدامي قد نقل مركز الاهتمام من جمالية النص إلى ثقافته، فإن هذا التحول لا يتوقف عند حدود تحليل الخطاب، بل يفتح الطريق نحو مساءلة البنية التي تنتج الوعي ذاته. وهنا يتقاطع مع بن نبي الذي يجعل من الوعي المحدد الأساسي لفاعلية الإنسان في التاريخ.

فالخطاب، في تصور الغدامي، يعيد إنتاج الوعي عبر أنساقه المضمرة، في حين يرى بن نبي أن هذا الوعي هو الذي يحدد قدرة الإنسان على تحويل الموارد إلى حضارة. وعلى هذا الأساس، تتشكل علاقة تكاملية دقيقة: النقد الثقافي يكشف بنية الوعي، والتحول الحضاري يعيد توجيه هذا الوعي نحو الفعل.

ومن هنا، فإن مشروع الغدامي يمهد الطريق نظريًا لبناء ما يسميه بن نبي "الإنسان الفعّال"، إذ لا يمكن بناء هذا الإنسان دون تفكيك الأنساق التي تعيق وعيه وتحدّ من فاعليته.

4.3. اختلال الدلالة في الخطاب وحدود الفاعلية في الواقع الحضاري:

يكشف الغدامي، من خلال تحليله للخطاب، عن أزمة عميقة في إنتاج المعنى، حيث تنفصل الدلالة الظاهرة عن البنية المضمرّة التي توجهها، مما يؤدي إلى ازدواجية في الوعي الثقافي. وفي المقابل، يشخص بن نبي أزمة موازية تتمثل في عجز المجتمع عن تحويل الأفكار إلى إنجازات حضارية.

ومن خلال الربط بين المشروعين، يمكن فهم هذه الازدواجية بوصفها علاقة سببية: فاختلال المعنى داخل الخطاب يؤدي إلى اختلال الفاعلية في الواقع. وبذلك، يصبح النقد الثقافي أداة لفهم لماذا تفشل الأفكار، بينما يقدم بن نبي تصورًا لكيفية استعادة فعاليتها.

وهنا تتجلى أهمية التكامل بين المشروعين، إذ لا يمكن تجاوز أزمة الحضارة دون معالجة مزدوجة: تفكيك البنية الدلالية التي تعيق الفهم، وإعادة بناء الشروط العملية التي تتيح تحويل الفكرة إلى فعل.

5.3. حدود التفكيك وإمكانات البناء: نحو توظيف النقد الثقافي في المشروع الحضاري

يمثل الانتقال من التفكيك إلى البناء النقطة الحاسمة التي تحدد القيمة الحقيقية لأي مشروع نقدي. فالنقد الذي يظل حبيس الكشف والتعرية يفقد قدرته على التأثير، بينما النقد الذي يفتح على أفق البناء يتحول إلى قوة تاريخية.

وفي هذا السياق، يكشف مشروع الغدامي عن حدود النقد حين يتوقف عند التفكيك، في حين يقدم مشروع بن نبي أفقًا بنائيًا واضحًا يقوم على إعادة تشكيل الثقافة عبر منظومة القيم (الأخلاق، الجمال، العلم، العمل). ومن هنا، يمكن النظر إلى المشروعين بوصفهما مرحلتين داخل مسار واحد: مرحلة تفكيك الأنساق المعيقة، ومرحلة إعادة بناء الثقافة على أسس فاعلة. وبذلك، لا يعود النقد الثقافي غاية في ذاته، بل يصبح لحظة تأسيسية داخل مشروع حضاري أشمل.

6.3. نحو نموذج تكاملي بين التحليل الثقافي والتفسير الحضاري:

تفضي هذه المقارنة إلى بناء نموذج تفسيري مركب يقوم على التكامل بين التحليل الثقافي والتحليل الحضاري، حيث يتوزع الفعل الفكري بين مستويين: مستوى تشخيصي يكشف البنية الخفية للتخلف، ومستوى تركيبي يعيد

توجيه هذه البنية نحو الفعل التاريخي. ومن خلال هذا النموذج، يمكن تجاوز الثنائية التقليدية بين النقد والتنظير، لصالح رؤية موحدة تجعل من الثقافة نقطة الانطلاق في فهم الأزمة، ومن إعادة بنائها شرطاً لتحقيق النهضة.

تكشف المقارنة إذن بين مشروع عبد الله الغدامي ومالك بن نبي أن العلاقة بين النقد الثقافي والتحول الحضاري ليست علاقة توازي أو تعارض، بل علاقة تكامل عميق بين مستويين من التفكير: مستوى تفكيك البنية الثقافية، ومستوى إعادة بنائها ضمن أفق حضاري. فالغدامي يضع اليد على الآليات الخفية التي تعيد إنتاج التخلف داخل الخطاب، في حين يفسّر بن نبي كيف تتحول هذه الآليات إلى ظواهر تاريخية، ويحدد شروط تجاوزها.

ومن ثم، فإن الجمع بين المشروعين لا يمثل مجرد إضافة معرفية، بل يؤسس لنقطة نوعية في التفكير العربي، حيث يتحول النقد الثقافي من ممارسة تأويلية إلى قوة تأسيسية لإعادة بناء الوعي، ويغدو التحول الحضاري أفقه التطبيقي الذي يمنحه المعنى التاريخي.

4. دراسة تطبيقية لتكامل المشروعين على النص الروائي العربي:

يمثل تحليل رواية الأصنام لأمين الزاوي مجالا تطبيقيا خصبا لاختبار النموذج التكاملي بين النقد الثقافي (كما تبلور في مشروع عبد الله الغدامي) والتفسير الحضاري (كما تأسس في فكر مالك بن نبي). فالنص الروائي لا يكفي بتمثيل المدينة بوصفها فضاءً سردياً، بل يعيد إنتاجها كمنظومة دلالية وحضارية تكشف تداخل الذاكرة بالمكان، وتداخل البنية الثقافية بالبنية العمرانية، بما يسمح بالانتقال من تفكيك الخطاب إلى مساءلة شروط الفعل الحضاري ذاته.

1.4 تفكيك الخطاب الثقافي للمدينة:

ينطلق التحليل الثقافي من مساءلة المدينة بوصفها نصاً مشبعاً بالرموز والأنساق غير المرئية التي تنتج المعنى. فالأصنام ليست مجرد فضاء جغرافي، بل شبكة من العلامات الثقافية: الأزقة، الأسواق، الفضاءات الدينية، والمهن الشعبية، كلها تشكّل خطاباً ضمناً يعيد إنتاج تصور المجتمع لذاته.

في هذا المستوى، يتقاطع التحليل مع منظور النقد الثقافي عند الغدامي، حيث لا يُنظر إلى التفاصيل الحضرية بوصفها عناصر بريئة، بل بوصفها آليات لإنتاج السلطة الرمزية. فالمكان الاستعماري، رغم جماليته العمرانية، يحمل في عمقه إعادة تشكيل للذوق والوعي، بينما يعكس التحول بعد الاستقلال انتقالاً من هيمنة استعمارية منظمة إلى فوضى رمزية تعيد إنتاج التهميش داخل بنية جديدة.

كما تكشف الرواية أن المهن البسيطة، والأسواق، والحمامات، والفضاءات الدينية ليست مجرد وظائف اجتماعية، بل بنى ثقافية تُنتج تصور الإنسان لذاته ومكانه. ومن ثمّ، يصبح تفكيك هذه العناصر كشفًا للخطاب الخفي الذي يحكم المدينة ويعيد إنتاج علاقتها بالسلطة والذاكرة.

2.4. من القراءة الثقافية إلى التحول الحضاري:

لا يقف التحليل عند حدود التشخيص، بل ينتقل إلى مساءلة ما وراء الانكسار الثقافي، أي شروط تحوله إلى أزمة حضارية. هنا تبرز أهمية التداخل مع مشروع مالك بن نبي، الذي يربط بين انهيار العمران وانهيار الفكرة المؤسسة له. فالزلازل في الرواية لا يُفهم كحادثة طبيعية فقط، بل كعلامة على اختلال البنية الحضارية للمدينة: ضعف التنظيم، تفكك العلاقة بين الإنسان والمكان، وتراجع القدرة على تحويل الثقافة إلى مشروع عمراني مستدام. ومن هذا المنظور، يصبح الخراب نتيجة لتراكمات سابقة على الكارثة، لا مجرد أثر مباشر لها.

إن المدينة قبل الزلازل كانت تحمل بذور هشاشتها في طريقة تنظيمها، وفي غياب مشروع حضاري متكامل يربط بين العمران والمعنى. وهذا ما يجعل التحليل يتجاوز مستوى "تفكيك الخطاب" إلى مستوى مساءلة "شروط الفعل التاريخي".

3.4. نحو نموذج تفسيري مركب:

يتيح الجمع بين المشروعين بناء نموذج تفسيري مزدوج الوظيفة:

- وظيفة تشخيصية: تكشف البنى الثقافية العميقة التي تنتج التخلف داخل المدينة (وفق منظور الغدامي).
- وظيفة تركيبية: تعيد مساءلة شروط تجاوز الأزمة عبر بناء رؤية حضارية جديدة (وفق منظور بن نبي).

في هذا الإطار، تتحول عناصر الرواية من مجرد مكونات سردية إلى مؤشرات حضارية: فالأزمة ليست فضاءات معيشية فقط، بل تعبير عن نمط تفكير عمراني؛ والمقاهي والأسواق ليست أنشطة اقتصادية فقط، بل أنظمة إنتاج للمعنى الاجتماعي؛ والكارثة ليست نهاية، بل لحظة كشف لعمق الاختلال البنيوي. وبذلك يتجاوز النموذج ثنائية "النقد/الوصف" إلى "النقد/البناء"، حيث يصبح تفكيك الخطاب خطوة أولى نحو إعادة التفكير في شروط الفعل الحضاري ذاته.

4.4. الرواية مختبر لإعادة البناء الحضاري:

تُظهر قراءة رواية "الأصنام" لأمين الزاوي في ضوء هذا النموذج أن النص الروائي لا يكتفي بتمثيل الواقع، بل يتحول إلى مختبر فكري يعيد طرح سؤال النهضة في الفكر العربي المعاصر. فالأدب هنا لا يعمل كمرآة للواقع،

بل كأداة لإعادة إنتاج أسئلته الكبرى. فتفكيك البنى الثقافية داخل الرواية يقود إلى إدراك أن أزمة المدينة ليست أزمة عمران فقط، بل أزمة معنى، وأن تجاوزها لا يتم إلا عبر إعادة بناء العلاقة بين الإنسان والفضاء والذاكرة. وهذا ما يمنح التحليل بعده الحضاري، حيث يصبح النقد الثقافي مدخلاً لفهم شروط إعادة التأسيس لا مجرد أداة وصفية.

يكشف تطبيق النموذج التكاملي على رواية **الأصنام** أن النقد الثقافي، حين يُدمج بالتفسير الحضاري، يتحول من ممارسة تفكيكية إلى أفق تأسيسي. فالرواية لا تُقرأ بوصفها نصاً عن مدينة مدمرة، بل بوصفها خطاباً عن إمكانات إعادة بناء الوعي الحضاري ذاته.

ومن ثمّ، فإن هذا النموذج يتيح تجاوز الفصل التقليدي بين التحليل الأدبي والتفكير الحضاري، لصالح رؤية تعتبر النص الروائي فضاءً لإعادة التفكير في شروط العمران الإنساني، وفي إمكانات النهضة داخل الفكر العربي المعاصر.

5. خاتمة:

تُفضي هذه الدراسة إلى أن العلاقة بين النقد الثقافي والتحول الحضاري في الفكر العربي المعاصر ليست علاقة تباعد أو توازن، بل علاقة تكامل بنيوي بين مستويين من الاشتغال الفكري: مستوى تفكيكي يكشف الأنساق الثقافية المضمرّة التي تعيد إنتاج التخلف داخل الخطاب، ومستوى تركيبي يعيد توجيه هذه الأنساق ضمن أفق حضاري قادر على إنتاج الفعل التاريخي. وفي هذا الإطار، يتكامل مشروع عبد الله الغدامي، بوصفه لحظة كشف نقدي للآليات الخفية المنتجة للوعي، مع مشروع مالك بن نبي، بوصفه أفقاً تفسيريّاً يؤسس لشروط بناء الحضارة.

وقد أظهر التحليل أن النقد الثقافي، في حدود اشتغاله التفكيكي، يظل عاجزاً عن إحداث التحول ما لم ينفتح على أفق بنائي يعيد تشكيل العلاقة بين الثقافة والفعل، كما أن الفكر الحضاري يفقد عمقه ما لم يستند إلى وعي نقدي يكشف البنية الثقافية المعيقة. ومن ثمّ، فإن القيمة المعرفية لهذا البحث تتمثل في اقتراح نموذج تفسيري مركب يعيد توظيف النقد الثقافي داخل أفق التحول الحضاري، بما يحوِّله من ممارسة تأويلية إلى أداة تأسيسية في إعادة بناء الوعي.

لا يتحقق تجاوز الأزمة الحضارية في العالم العربي عبر استيراد النماذج أو تراكم الوسائل، بل عبر إعادة بناء الثقافة بوصفها المجال الذي تتحدد فيه فاعلية الإنسان واتجاه التاريخ. وهو ما يقتضي الجمع بين تفكيك الأنساق الثقافية المعيقة وبناء منظومة قيمية فاعلة، تعيد إنتاج الإنسان بوصفه محور العملية الحضارية.

وإذا كان هذا التكامل يفتح أفقًا نظريًا جديدًا في قراءة العلاقة بين الثقافة والحضارة، فإنه يطرح في الآن ذاته أفقًا بحثيًا مفتوحًا يستدعي توسيع هذا النموذج وتطبيقه على مجالات أوسع، بما في ذلك الخطاب التعليمي والإعلامي والممارسات الاجتماعية، باعتبارها فضاءات مركزية لإعادة إنتاج الوعي أو إعادة بنائه.

المصادر والمراجع:

• المؤلفات:

- بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، (لبنان، دار الإنشاء للطباعة والنشر، 1974)
- بن نبي، مالك، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، (دمشق، سوريا، دار الفكر، 1992).
- بن نبي، مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (مشكلات الحضارة)، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، (لبنان - سورية، دار الفكر المعاصر - دار الفكر، 2002)
- بن نبي، مالك، تأملات، (دمشق، سوريا، دار الفكر، 1979)
- الغدامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير (من النبوية إلى التفكيكية)، (جدة، العربية السعودية، النادي الأدبي الثقافي، 1995)
- الغدامي، عبد الله، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2005)

• المقالات:

- سلامة هيكل، عبد الباسط، (2015)، النقد الثقافي (مفاهيم وأبعاد نحو نظرية جديدة في النقد الثقافي)، كلية الآداب واللغات، جامعة الأزهر، القاهرة، ع1، ص11-26.
- نعاس، سامية، (2022)، مركّزات النقد الثقافي والخطوات المنهجية للمقاربة الثقافية، مجلة اللغة الوظيفية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، المجلد 9، العدد 2، ص565-584.

هوامش البحث:

- ¹ عبد الله الغدامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية (النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص17.
- ² عبد الباسط سلامة هيكل، النقد الثقافي (مفاهيم وأبعاد نحو نظرية جديدة في النقد الثقافي) كلية الآداب واللغات، جامعة الأزهر، القاهرة، ع1، ص18
- ³ ينظر: جميل الحمداوي، النقد الثقافي بين المعرفة والسندان، منبر الثقافة والفكر والأدب، 2012
- ⁴ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص15.
- ⁵ ينظر: سامية نعاس، مركّزات النقد الثقافي والخطوات المنهجية للمقاربة الثقافية، مجلة اللغة الوظيفية، المجلد 9، العدد 2، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 03/12/2022، ص571.
- ⁶ ينظر: عبد الله الغدامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص66.
- ⁷ ينظر: عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير (من النبوية إلى التفكيكية)، النادي الأدبي الثقافي، جدة، العربية السعودية، ط2، 1995، ص125-132
- ⁸ ينظر: عبد الله الغدامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص74.
- ⁹ ينظر: المرجع نفسه، ص77، 78.

- 10 مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، دار الإنشاء للطباعة والنشر، لبنان، 1974، ص 114
- 11 ينظر: مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1979، ص 147
- 12 مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 74.
- 13 مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط3، 1992، ص 92
- 14 المصدر نفسه، ص ص 100، 101.
- 15 المصدر نفسه، ص 101
- 16 مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص 101.
- 17 مالك بن نبي، تأملات، ص 129.
- 18 مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 83.
- 19 المصدر نفسه، ص 85.
- 20 المصدر نفسه، ص 154.
- 21 ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي (مشكلات الحضارة)، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002، ص 41
- 22 المصدر نفسه، ص 104-116
- 23 المصدر نفسه، ص 35، 36
- 24 المصدر نفسه، ص 131
- 25 المصدر نفسه، ص 139